المحاضرة الخامسة:

الأدب العربي في العصر الوسيط/ أغراض الشعر التقليدية/ المرحلة الثالثة

شعر الوصف :

الوصف ركن أساس من أركان الشعر العربي ، وقد اصاب ابن رشيق القيرواني في قوله : " الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف " فأننا نجده في شعر المديح والرثاء والهجاء والغزل ... إلى جانب الشعر الخاص في الوصف .

وقد ألمَّ الشعراء في الوصف بكل شيء وقعت أعينهم عليه في دورهم وقصورهم من حاجات .. وفي مدنهم وقراهم من بساتين وأزهار وثمار وأطيار وأنهار .. وفي سمائهم من كواكب وسحب وأمطار.. وفي ديارهم من حيوانات أليفة وكاسرة ، وحشرات مضرة ونافعة ...

وتفاوت الشعراء كثرةً وقلةً في الوصف ..وقد بلغ مجير الدين ابن تميم (ت 682ه) القمة في الكثرة والنوعية ، فأنه كان عاشقا لكل جميل فـــي الطبيعة .. مثل قوله في وصف النيلوفر (وهو جنس من النباتات) : (للحفظ)

ونيلوفر كالزهر شكلاً ومنظراً محاسنه فيهـــا اللواحظ ترتــعُ

وكلّ نجـــوم لكن الفرقَ أنّها تغيب صباحاً وهي في الصبح تطلعُ

هنا يمتزج الشاعر بمشاعره وأحاسيسه مع الزهور ولاسيما مع نبات النيلوفر الذي اعجب الشاعر بمظهره وحسنه ، إلى درجة أنه عقد مقارنة بينه وبين النجوم في السماء في طلعتها الجميلة التي تبهر من يراها ..

ومن الشعراء الذين هاموا بجمال الطبيعة ، ومتنزهاتها عبد الرحمن بن محمد الملقب بابن النقيب (1081ه) مثل قوله في الرياض البهجة ، مستخدماً تشبيهات متوالية لتقريب صورها من القارئ : (للحفظ)

ورياضٍ مختالةٍ مـن ثراهـــا فـــي برود مـن زهرها وعقودِ

وكأنَ الغصـون فيهـــا عذارى تتبارى زهـــواً بحسن القدودِ

وكأنّ الطيـور فيهـــا غوانٍ تتغنـى فـــي كلّ عودٍ بعودِ

وكأنّ الميـــاه فـــي خلل الرو ضِ سيـــوف تُسلّ تحـت البنـودِ

وكأنّ البهـــارَ يغمزُ بالأعـــين فيهـــا علـــى ابنة العنقودِ

(مختالة : الختل : الموضع يُختتل فيه . خاتله : ختله : خادعه وراوغه ثرى : التراب الندي. برود : البُرْد : من الثياب جمعه : بُرُود، والبُردة : كساء أسود مربع فيه صِغَر . بُنود : جمع بَنْد : عَلَمٌ كبيرٌ . البَهَار : بَهَار البَرّ وهو نَبْت جَعْد له فُقَّاحة صفراء تنبت أيام الربيع ...) .

فالشاعر هنا يصور لنا هذه الرياض وهي تدبّ الحياة فيها حيث النباتات المتنوعة والازهار الملونة والمياه العذبة وأشكال الطيور الصادحة.. وبلا شكّ أنّ الطبيعة بهذا الحال قد أمدت مخيلة الشاعر بهذه الصور التشبيهية الرائعة الوجود والجميلة في الوصف . إنّ ديوان هذا الشاعر دوحة غناء بأنواع الزهور كالورد والقرنفل والياسمين والنرجس والبنفسج ...

ووصف الشعراء المدن الجميلة الواقعة في أحضان تلك الطبيعة ، ورسموا مباهجها في لوحات زاهية ، بألوانها ، وضلالها ، فهذه عائشة بنت يوسف الباعونية .. تدعو الناس أنْ يُنزهوا أبصارهم بمحاسن دمشق المتمثلة في قصورها المنيفة ، ورياضها الندية ، وثمارها الشهية ، ومياهها الجارية البهية ، ويُمتعوا أسماعهم بأنغام أطيارها الصادحة بأعذب الأصوات في خمائلها : (للحفظ)

نَزِّه الطرفَ فـــي دمشقَ ففيها كلّ مـــا تشتهي ومـــا تختـارُ

هـي فـــي الأرض جنة فتأملْ كيف تجـري مـــن تحتهـا الأنهارُ

كـم سما فـي ربوعها كلُّ قصر أشرقت مـــن وجوهها الأقمارُ

وتُناغيـكَ بينـها صادحـاتٌ خرستْ عند نطقهـا الأوتـارُ

كلُّهـا روضـةٌ ومـاءٌ زلالٌ وقصورٌ مَشيدةٌ وديـارٌ

(نَغَى ، يَنْغَى ، نَغْياً ، ناغٍ ، النَّاغي : الشخص تكلم بكلام لا يُفهم . مُنَاغىً : الصبيّ . لاطفهُ بالحديث والمُلاعبة . صادح : صَدَحَ ، يصْدحُ ، صدْحاً .. الطائر غرَّدَ ..) . ومن وصف المدن أيضاً ما قاله الشاعر صفي الدين الحلي في وصف مدينة بغداد : (للحفظ)

مـا بَعْدَ بغدَادَ للنفوسِ هـوًى رَقّ هَواها وراقَ مَنْظـرُها

كأَنَّهـا جَـنَّـةٌ مـزخـرفة وَنَهْـرُ عيسَى النّميـر كَوْثَرُهـا

ومن شعر الوصف الأبيات المقطعة في وصف بعض الأشياء والأماكن ، قال صفي الدين الحلي في وصف باب وكتب صفته عليه : (للحفظ)

وبـابٍ ، إذا أَمَّـهُ قـاصِدٌ رآهُ مـن الغَيثِ أَندَى وأَنـدَى

لـهُ الفَتـحُ دأبٌ ، ومن شأنه يُـرَد وقـاصدُهُ لـن يُـرَدَا

(أَمَّهُ : الأَمُّ : القَصْد . الغيث : المطر. النَّدَى : الجُود ورجلٌ ندٍّ ، أي جَوَاد . وفلان أندى من فلان ، أي أكثر خيراً منه . وفلانٌ نَدَى الكَفِّ أي سَخِيّ) .

يريد الشاعر هنا وصف صاحب الدار بالكرم ، فوصف الباب لأنّه المدخل إليه . أو وصف الدار وأراد صاحب الدار . وفي موضوع الوصف شاع استخدام المقطعات الشعرية بكثرة من قبل شعراء هذا العصر ، لأسباب منها : سهولة نظمها وحفظها ، تتسم بالإيجاز المكثف ، والوصف الدقيق الذي يحتوي على صور فنية

مكتنزة بالخيال الخصب والإيحاء العميق ، ولأنَّها توثق اللحظة الحاضرة ، فغالباً ما تنظم على البديهة أو على الارْتِجَال . وهي على العموم تدلّ على امكانية فنية عالية لدى الشعراء .

ونجد الوصف أيضاً في شعر الطرد في هذا العصر، وهو شعر يصف فيه الشاعر رحلة الصيد ، يقول صفي الدين الحلي في وصف الصيد ورماية البندق : (للحفظ)

أَمَـــــا تَـرى الأنواءَ والسَحائِبا قد أصبحت دموعُهـــــا سَواكِبا

فاكتَسَتِ الأرضُ بهـــــا جَلابِبـــا فأظهــرتْ أزهارهـــــا عَجائِبا

غَرائباً أضحتْ لنا رَغائِبا

هذي الروابـــي بالكلأ قد تُـوَّجَتْ ونَسمَةُ الخريفِ قـــــد تأرّجَتْ

وقـــــــد صفَتْ مياهُهُ ورَجّجَتْ والأرضُ بالأزهارِ قد تدبّجَتْ

واصبَحَ الطَّلُّ عليها ساكِبَا

(الكلا : مخفف الكلأ : العشب . تارّجت : انتشرت كالأريج رائحتها . تدبّجت : دَبَجَ : يَدْبَجُ دبجاً : دَبَجَ الشيء : حسنّه ، جوّده ، ونّمَّقه . دبَّج المطرُ الأرضَ : سقاها فاخضّرت وأزهرت ، وتزيّنت . الطَّلُّ : أضعفُ المَطَر وجمعه (طِلال) تقول منه : طُلَّت الأرضُ و (طَلَّها) النَّدَى فهي مَطْلُولة) . الشاعر هنا يصور لنا تلك الطبيعة البكر ، في تصوير دقيق ، وكأنّنا نتابع لقطات سينمائية متحركة امام أعيننا ، ينقلنا الشاعر عبر تصويره الدقيق إلى تلك الطبيعة الخضراء ، وقد تزينت الأرض بالنباتات والازهار بفعل المطر الذي أصابها ، وجعل منها حسنة المنظر ..